الفصل الثالث

مقارنة بين الماضي والحاضر

لقد ظهر لنا من الفصلين السابقين مدى حرص هذه الأمة، من أولها إلى يومنا الحاضر، على العمل بنصوص الشريعة، والاقتداء بهدي رسولها محمد ﷺ، في وقف الأوقاف التي تخدم الإسلام والمسلمين، كما ظهر لي بأن هناك اختلافات وفروقات بين حال الأوقاف في الماضي، وحالها في الحاضر، وأستطيع أن ألخص هذه المقارنات في الآتي:

أولاً – أن المسلمين الأوائل وخاصة الصحابة الكرام – رضي الله عنهم أجمعين – أكثر حرصاً على إيقاف الأوقاف من المسلمين في الوقت الحاضر، إذ نجد أن جابراً رضي الله عنه يقول: (لم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ، ذو مقدرة إلا وقف)[1].

كما أن الناظر في تاريخ المسلمين يجد أن الوقف كان له وجود كبير في حياة الناس، وخاصة ما يتعلق بالدعوة والتعليم، ومساعدة الفقراء والمحتاجين، وهذا منهم لعلمهم بأهمية الوقف في استمرار هذه الأعمال الخيرة، وعدم انقطاعها، إذ أنها تعتمد على موارد ثابتة لا تتغير بتغير الأحوال والأشخاص.

أما في زماننا الحاضر فإن الذي يحرص على إيقاف الأوقاف، هم فئة قليلة من الناس، ممن وفقهم الله ﷻ، بالإضافة لبعض المؤسسات الخيرية والدعوية التي بدأت تهتم بالأوقاف لما رأت من تأثر برامجها، وعدم انضباطها في نشاطها، وذلك بسبب عدم ثبات دخلها، واستمراره، فلذا حرصت على تشجيع الوقف، والسعي على إيجاده، من خلال تبني فكرة الأوقاف وجمع التبرعات لها.

فلذا نقول: إن المسلمين اليوم في غفلة عن الوقف وأهميته، وذلك من خلال النظر إلى كثرة عدد المسلمين اليوم، مقارنةً بعدد الأوقاف وانتشارها في مجتمعاتهم. فبالمقارنة يظهر لنا أن الأوائل كانوا أحرص على إيقاف الأوقاف من المتأخرين، وذلك لفقههم، وقربهم من نبيهم ﷺ، الذي تلقوا عنه هذا التشريع، وسمعوا منه التأكيد والحثّ عليه.

ثانياً – أن القائمين على الوقف في السابق، كانوا في الأغلب هم القضاة وعلماء البلد، فإن الناظر

---

(١) المغني، ابن قدامة، ٨/١٨٥.

في كتب الفقه، والتاريخ الإسلامي، يجد أن كثيراً من العلماء وخاصة منهم القضاة قد أسند لهم مهمة النظر في الأوقاف، وإدارتها، وتوزيع غلتها.

أما في الوقت الحاضر، فبدأ الوقف يأخذ صبغة أخرى، فيما يتعلق بالقائمين عليه، إذ أصبح له في كثير من الأحيان هيئة مستقلة، مكونة من العلماء ووجهاء المجتمع لتدبير شؤونه، وتوزيع غلته.

بل في بعض الأحيان تكون الهيئة، وتحدد البرامج، ومصارف الوقف، قبل البدء فيه، كما يظهر ذلك من خلال الإعلانات التي تتبناها المؤسسات الخيرية لدعم بعض المشاريع الوقفية التي تريد الوصول إليها.

ثالثاً – كان الوقف في القديم واضح المعالم، وهناك سهولة في إدارته، وتوزيع غلته على المستفيدين منه، أما في الوقت الحاضر فأصبح الوقف يحتاج إلى فريق متكامل، ومتفرغ في بعض الأحيان لإدارته وتصريف شؤونه، وذلك لكثرة أعماله وتشعبها، وكثرة المستفيدين منها، مما يؤكد الحاجة إلى ضبطهم وحصرهم، وتحديد استحقاقاتهم.

رابعاً – كانت الأوقاف في السابق محددة المصارف، فمنها ما هو مخصص على الفقراء، ومنها ما هو مخصص للمرابطين في سبيل الله، ومنها ما هو مخصص للأيتام،.. وهكذا.

وأما في الوقت الحاضر فبدأت بعض الأوقاف تأخذ في عملها، وتوزيع غلتها الشمول، وكثرة مصارفها وأعمالها، إذ نجد مثلاً أن مصارفَ بعضٍ منها تشمل الدعوة، والجهاد، والتعليم، ومساعدة الفقراء والأيتام، وطباعة الكتب، وغير ذلك من الأعمال الواسعة الشاملة.

خامساً – كان الوقف في الماضي محصوراً في أنواع محددة، أي أنه قد يكون منزلاً للسكنى، أو أرضاً للزراعة، أو محلاً تجارياً، وغير ذلك من المجالات المعروفة في القديم.

أما في الوقت الحاضر، فبدأ الوقف يتسع في أنواعه ومجالاته، كأن يكون أسهماً في أحد الشركات التجارية، أو المصانع، أو أن يكون فندقاً، أو أن يكون الوقف الواحد شاملاً لأنواع كثيرة، كأن يكون سوقاً تجارياً، ومجموعة من المنازل، والمكاتب التجارية، ومواقف السيارات، أي أن حجمه كبيرة ومتعدد المناشط والمجالات.

سادساً – كان الوقف في الماضي نشاطه محدود على فئة معينة، أو صنف أو صنفين على الأكثر،

أما في الوقت الحاضر فأصبح الوقف الواحد له مصارف كثيرة ومتعددة، كأن يكون للفقراء والمساكين، والأيتام والأرامل، والدعاة والعلماء، وطباعة الكتب والنشرات،.. وهكذا، بل قد يشمل القريب، والبعيد، من هم داخل البلاد التي فيها الوقف، ومن هم خارجه في البلاد القريبة والبعيدة.

سابعاً - كانت أنواع الأوقاف في الماضي، ومجالات صرف غلته وثمرته متعددة وكثيرة جداً، فمنها ما هو للمساجد، ومنها ما هو للمدارس، أو المكتبات، أو المستشفيات، أو الفنادق للمسافرين الفقراء، ومنها ما هو للسقايا في المدن وفي الفلوات، ومنها ما هو لإصلاح الجسور والقناطر، وغير ذلك من الأنواع الكثيرة التي كانت عجباً يخيل إلى من يقرأ عنها في كتب التاريخ، أنها من باب المبالغة والخيال، بل قد يتردد بعض الكُتَّابِ المعاصرين في ذكرها خوفاً من أن يتهم بالإفراط في القول[1].

أما في الوقت الحاضر، فبعض المجالات القديمة تركها أهل الخير، للدول وحكومات بلادهم لتنفق عليها، كإصلاح الطرق والجسور، وإنارة الطرقات ورصفها للمارة،.. وغير ذلك من المجالات.

ثامناً - كانت الأوقاف في القديم صغيرة ومحددة في الغالب، أما في الوقت الحاضر فأصبحت هناك أوقافاً كبيرة جداً، برأس مال ضخم، لأنه يشترك فيها مجموعة من الناس بأموالٍ متفرقة، فيها القليل وفيها الكثير.

---

(١) انظر: الواقع المعاصر للأوقاف في المملكة العربية السعودية، وسبل تطويرها، بحث مقدم لـ(ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية - مكة المكرمة ١٨، ١٩ شوال ١٤٢٠هـ)، ص٤٧-٤٨.